مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2024 المجلد: 07 العدد: 01 ص.ص: 85-99

مقاربة أنثروبولوجية لرمزية الوفاة، وطقوس الاحتضار في المخيال الشعبي مدينة تلمسان انموذجا

An anthropological approach to the symbolism of death and dying rituals in the popular imagination Tlemcen as a model

نعيمة رحماني، جامعة تلمسان، الجزائر، naima.rahmani@univ-tlemcen.dz

تاريخ إرسال المقال: 07-01-2024 تاريخ قبول المقال: 04-03-2024

الملخص:

تمثّل ظاهرة الوفاة الازمة الحياتية الأخيرة التي يواجهها أفراد المجتمع، حيث تحاط بطقوس وشعائر تمهيدا للانتقال الى عالم آخر. تعبّر هذه الطقوس عن المشاعر والعواطف، وتعكس في الوقت ذاته الرموز الثقافية المرتبطة بظاهرة الوفاة .

نروم إذا من خلال هذا البحث دراسة رمزية الوفاة كظاهرة حياتية تشمل كل البشريّة، وسنستعرض الطقوس والشعائر المرافقة لمرحلة الاحتضار في المخيال الشعبي لساكنة مدينة تلمسان، مع التركيز على التأثير الثقافي والديني لتلك الطقوس، ومن هذا المنطلق سنتبنى الإشكالات التالية :

*كيف تتنوع وتختلف طقوس الاحتضار في المخيال الشعبي لساكنة مدينة تلمسان؟

*كيف يتأثر مفهوم الوفاة وطقوس الاحتضار بالرواسب الثقافية والمعتقدات الدينية؟

*كيف يتعامل المجتمع التلمساني مع اختلاف الرؤى حول ظاهرة الوفاة وطقوس الاحتضار؟

الكلمات المفتاحية: الوفاة – الاحتضار– الطقوس –المخيال الشعبي

Abstract:

The phenomenon of death represents the last crisis of life faced by members of society, as it is surrounded by rites and rituals in preparation for the transition to another world. These rituals express feelings and emotions and reflect the cultural symbols associated with the phenomenon of death.

Through this research, we seek to study the symbolism of death as a phenomenon of life that includes all humanity, and we will review the rituals that accompany it in the popular imagination of the inhabitants of the city of Tlemcen, with a focus on the cultural and religious impact of these rituals. From this point of view, we will adopt the following problems:

How do death rituals vary in the popular imagination of the inhabitants of Tlemcen?

How are the concepts of death and dying rituals affected by cultural repositories and religious beliefs?

How does the community of Tlemcen deal with different points of view on the phenomenon of death and dying rituals?

Key word: death - dying - rituals - popular imagination

مقدمة:

تتباين الطقوس والرموز المرتبطة بظاهرة الوفاة باختلاف المجتمعات، وبالتركيز على المجتمع الجزائري نجده يزخر بالتنوع الكبير للطقوس الجنائزية كجزء من إرثه الشعبي الذي تتوارثه الأجيال عبر الزمن، مرفقا بالحكايات والاساطير والأمثال الشعبية والألغاز وغيرها من الممارسات والتعبيرات الثقافية المتشعبة.

المبحث الأول: تحديد المفاهيم

المطلب الأول: مفهوم الموت أو الوفاة

عرّف الموت لغويا في القاموس المحيط على النحو التالي؛ مات يموت ويُمات ويُميت فهو ميت: ضد حي، ومات سكن ونام وبلي، والميت الذي مات والمائت الذي لم يمت بعد. [1]

ومن الجانب الاصطلاحي الانثروبولوجي السوسيولوجي ذكر الانثروبولوجي هيرتز ان الموت ليس نهاية للجسد فقط بل هو تدمير للنسق الاجتماعي حيث تتكسر الروابط التي تربط الميت مع عائلته وقبيلته ومدينته، وهذا لا يتم في لحظة واحدة بل من خلال مراحل على شكل طقوس جنائزية. [2]

أما العالم الفرنسيّ فان جنب Van Gennep (1873–1957م) فقد قسّم المراحل الحياتية إلى ثلاث مراحل زمنيّة: المرحلة التّمهيديّة أو الانفصاليّة عن الوضع الأوّل «préliminaire–séparation»، ثمّ المرحلة الاستهلاليّة الهامشيّة، أي على العتبة «liminaire–marge»، وهناك من يُسمّيها المرحلة الإعداديّة للدّخول إلى المكانة الجديدة، وفي الأخير المرحلة الختاميّة أو الاندماجيّة أو التّجميعيّة أو الانضماميّة إلى الوضع الجديد «postliminaire –agrégation ».[3] وهي مراحل يطلق عليها اسم مراحل العبور او الانتقال او المرور، ومن ثم يعتبر العالم فان جنب الموت مرحلة من مراحل الانتقال أو طقسا من طقوس العبور.

من جانب آخر ذكرت الباحثة شارلوت سيمور سميث أن الموت أزمة شخصية وأسرية من ناحية وأزمة اجتماعية واستبدال للدور من ناحية أخرى، وأوضحت انه يوجد بعدان متميزان للتنظيم الاجتماعي والثقافي للموت؛ يتمثل الأول في طريقة التعامل مع أزمة الموت نفسها داخل الجماعة، أما الثاني فيعكس الدلالة الرمزية داخل الانساق الفكرية والشعائرية والاجتماعية. [4]

المطلب الثاني: مفهوم الاحتضار:

الاحتضار مرحلة تسبق الوفاة وتتميز بتراجع وظائف الجسد تدريجيا، وتعتبر فترة حساسة ومهمة للغاية في حياة الانسان، وقد عرف الاحتضار لغة؛ حيث يقال حضر المكان واحتضره أي شهده، واحتضر بمعنى مات، لأنه قد حضرته الوفاة او ملائكة الموت، [5] والمحتضر هو المشرف على الموت أي في حالة النزع.[6]

أما الاحتضار اصطلاحا فهو اشراف الشخص على الموت، ويستمر لفترة متفاوتة تسبق مفارقة الروح للجسد، وبعدها تأتي مرحلة الموت ثم الإعلان عن الوفاة من قبل اهل الميت او اقاربه او معارفه. تختلف طقوس الاحتضار والعادات المرتبطة به بشكل كبير حسب الثقافة والديانة والمجتمع. [7] ففي بعض الثقافات تعتبر فترة الاحتضار فرصة لتوديع المحتضر والتأمل في الحياة والموت، بينما في ثقافات أخرى تكون الطقوس أكثر تعقيدا وتشمل الصلوات والأدعية والترتيبات الجنائزية المنتظرة.

بشكل عام يعتبر الاحتضار جزءا طبيعيا من دورة الحياة البشرية، وتتنوع الطقوس والتقاليد المرتبطة به بشكل كبير في مختلف المجتمعات، مما يبرز التنوع الثقافي والديني في تفسير هذه الظاهرة الإنسانية.

المطلب الثالث: مفهوم الطقوس والطقوس الجنائزية:

لقد ظهرت في علم الانثروبولوجيا نظريات كثيرة تناولت الطقوس الجنائزية، وقد عرف الانثروبولوجي جلوكمان الطقوس على انها تنظيم مركب للنشاط الإنساني ليست له طبيعة فنية (تقنية) او ترويحية بارزة، ويتضمن استخدام أساليب السلوك التي تتسم بقدرتها على التعبير عن العلاقات الاجتماعية. [8] أي أن الطقس أسلوب يضم الأفعال والاقوال والاشياء ويرتب السلوكات بين افراد المجتمع ضمن ظاهرة محددة.

من جانب آخر قام الانثروبولوجي الفرنسي هيرتز بربط نمط الطقوس الجنائزية بنمط التنظيم الاجتماعي. بينما ركز الانثروبولوجيان فان جنب وراد كليف براون على كيفية تعايش المجتمع مع المشكلة التي تسببها وفاة أحد أعضائه.

ومن خلال تلك الدراسات تمت دراسة الطقوس الجنائزية في مختلف المجتمعات فتم التركيز على ازدواجية الأرضي والعلوي أي العظام مقابل اللحم، إضافة الى ظاهرة الحزن على الميت من خلال البكاء واعتباره نسقا منظما، إضافة الى دراسة مآل ممتلكات الميت من خلال تدميرها او توريثها ضمن طقوس معقدة. [9]

المطلب الرابع: مفهوم المخيال الشعبي:

ورد في لسان العرب "خيل: خال الشيء، يخال خيلا وخيلة وخيلة وخالا وخيلا وخيلانا ومخالة ومخيلة وخيلولة: ظنه. وفي المثل يقال: "من يخل أي يظن"، وتخيل الشيء له: تشبه، تي تشبه له، يقال تخيلته أي تصورته، والخيال ما تشبه في اليقظة والحلم من صورة. (10)

المخيال مفهوم فلسفي، جاء ليعبر عن الخيال والتخيل، وقد اعتبره ديكارت عنصرا مشوشا على العقل فهو بالنسبة اليه سيد الخطأ والظلال. بينما اعتبره كانط حلقة تربط بين الادراك والفهم وهو مصدر للمعرفة.(11)

المخيال اذا هو مجموع التصورات المشتركة لدى جماعة شعبية معينة تجاه جماعة أخرى.(12)

أما المخيال الشعبي فهو كل ما تحمله الذاكرة الشعبية من تصورات وتخيلات للحاجات النفسية والاجتماعية لأفراد المجتمع والتي تنعكس على الأيديولوجيا، الخرافة، الأسطورة، الحكاية، المعتقدات، الطقوس، العادات والتقاليد وغيرها.(13)

المبحث الثاني: البدايات الأنثروبولوجية لدراسة ظاهرة الوفاة

أظهرت البدايات الأنثروبولوجية لدراسة ظاهرة الوفاة تطورا تدريجيا ضمن اهتمامات الانثروبولوجيين، فلم تكن هنالك أهمية كبيرة مخصصة لدراسة تلك الظاهرة بل انصب جل اهتمام الباحثين بعادات الزواج وانماط السلوك الجنسي ومواضيع أخرى.

ولكن في نهاية القرن التاسع عشر بدأت مجموعة من العلماء الأنثروبولوجيين في التفرغ لدراسة طقوس الوفاة، والممثّل البارز لهم هو الأنثروبولوجي تايلور الذي تناول مفهوم الأنيميزم أو المبدأ الروحي؛ الذي يتسم بالاعتقاد في وجود الروح ككيان منفصل عن الوجود المادي. وقد استنتج ان هناك جوانبا غامضة وجوهرا ما في الجسد الحي للفرد يختلف عن الجسد الميت.

ومع تطور الاستنتاجات برزت فكرة إسقاط كل مظاهر الحياة على الأشياء الجامدة مما أدى الى تكوين المبدأ الحيوي أو الأنيميزم.

أما الأنثروبولوجي جيمس فريزر فقد قام بجمع معلومات اثنوجرافية حول مفاهيم مصير الروح وظواهر السحر العاطفي، حيث تناول الأثر الذي يمكن ان يحدثه السحر العاطفي في الضحية من خلال محاكاة هذا التأثير وصناعة انموذج له على شكل دمية يتم ايذاؤها بطرق معينة حتى الوفاة.

قام أيضا الأنثروبولوجي روبرت هيرتز بدراسة حول طقوس الوفاة في اندونيسيا ضمن بحثه "الاسهام في دراسة التصور الجمعي للموت"، متناولا مصير الجثة الروح.

أما الأنثروبولوجي قودي فركز على استعادة البناء الاجتماعي لتوازن المجتمع بعد الوفاة. بالإضافة الى ذلك قام الأنثروبولوجي فان جنب بدراسة مقارنة لدورات الحياة في مجتمعات مختلفة وتناول شعائر المرور وطقوس انتقال الافراد بين المراحل.

وفي سياق مشابه تناول الانثروبولوجي إيفانز بريتشارد طقوس الوفاة عند قبائل الازاندي بجنوب السودان وأشار إلى قوة ايمانهم بالخرافة والكهانة والسحر، إذ يظهر ذلك جليا في ممارساتهم المرتبطة بالوفاة. نجد الى جانبهم الانثروبولوجي أوسكار لويس الذي درس ظاهرة الوفاة في المجتمعات غير البدائية في أمريكا اللاتينية وقد توصل الى أن كل عائلة تعيد تنظيم نفسها عند حدوث الوفاة في الأجيال الأكبر سنا.[14]

المطلب الاول: ظاهرة الوفاة في المخيال الشعبي الجزائري التلمساني

تعدّ الوفاة ظاهرة إنسانية ذات أبعاد متعددة، حيث تتنوع زوايا الدراسات حولها، وتعتبرها دورة ضمن دورات الحياة، وطقس من طقوس العبور وفق نظرية فان جنب التي تفترض بان كل انسان يمر بمراحل مختلفة خلال حياته تحدث فيها طقوس متنوعة حسب تقاليد كل مجتمع. تبدأ هذه الطقوس بمرحلة الولادة كأولى مراحل العبور، وتستمر مع مراحل متنوعة من الطفولة حتى سنّ النضج. يعتبر أيضا الزواج مرحلة أخرى للعبور، بينما يمثل طقس الوفاة مرحلة العبور الأخيرة. [15]

ويعرف هذا الطقس الأخير بنية ثلاثية وفقا لفان جنب، حيث تبدأ بمرحلة العزل؛ أي فصل المتوفى عن باقي المجموعة، تليها مرحلة الهامش؛ وهي الفترة الانتقالية التي تفصل عادة بين تجهيز المتوفي وتطهيره وجنازته النهائية أو بين إحداد الأحياء وإنهائهم لهذا الاحداد، أما المرحلة الثالثة فتشمل الادماج، أي ادماج الميت في مجتمع الأموات وإدماج الأحياء في مجموعة الأحياء. [16]

وتختلف هذه المراحل حسب أنواع الانتقال، سواء كانت فردية أو جماعية، وتعيد تحديد الأدوار المختلفة في كل مرحلة.

القلق من الوفاة شعور فطري يعود إلى جهل الانسان بالعالم الآخر، وهذا الجهل يدفعه لبناء معرفته على أساس الأساطير والخرافات التي صاغها مخياله الشعبي. ومن ثم يشيّد الفكر الشعبي مرجعيته حول الوفاة من خلال العلاقة الثنائية الضدية بين الحياة والموت، حيث تفسر الوفاة كتحطيم وهدم للحياة.

وبناء على هذه الثنائية يبدأ الفكر الشعبي في تخزين مجموعة من الرؤى والمفاهيم المرتبطة بظاهرة الوفاة.

وقد ورد في رسائل الاخوان ان الانسان عالم صغير وان بنيته تشبه المدينة الفاضلة، حيث وصفوا حالة الجسد بعد مفارقة النفس اثناء النوم (الوفاة الصغرى) فقالوا: " إن حال الجسد أثناء النوم وهدوء الحواس

وسكون الحركات تشبه حال تلك المدينة إذا أغلقت أسواقها وتعطل صناعها وحلت طرقاتها ونام أهلها وسكنت حركاتها وهدأت أصواتهم.

وحال الجسد عند مفارقة النفس له تشبه حال تلك المدينة إذا رحل عنها أهلها وخلت من ساكنيها وباد جيرانها وبقيت خرابا وصار مأوى للسباع والبوم ثم تساقطت حيطانها وخرت سقوفها وصارت تلالا وروابي لا يتبين فيها إلا الحجارة والاجر والطين والتراب". [17]

وفي هذا السياق يرمز التراب الى عودة الانسان الى التراب الذي خلق منه، ويظهر كمفهوم يرتبط بالدورة الطبيعية للحياة والموت والتجدد.

تعتبر الأساطير والحكايات والأمثال وسائل فعالة لتمرير الطقوس المرتبطة بالوفاة من جيل إلى جيل. وتعتبر الأمثال الشعبية تحديدا أحد أبرز وسائل التواصل الشفوي، حيث تتداول بسهولة عبر الالسنة لأنها تصوّر بشكل دقيق العلاقات الاجتماعية الأكثر تعقيدا وتعكس بصدق التناقضات الحياتية المتداخلة.

اللي زاد مات

كل القوت واستثنى الوفاة

هربَتْ من قطاع الروس طاحَت في قباض لعمار

اخدم يا صغري لكبري واخدم يا كبري لقبري

اللي يحب الدنيا يبكرلها واللي يحب الاخرة يفكرلها

الموت حارة والفرقة مرة

يظهر في الأمثال الشعبية تركيز على حقيقة الوفاة وتأكيد على حتميتها في الوجدان الجمعي، مع ظهور حالة من القلق والخوف من هذه الظاهرة. ولكنها في الوقت نفسه تشجع على الاستفادة القصوى من الحياة والعمل على تحسين الوضع بعد الوفاة.

بالإضافة الى الأمثال نجد ان المخيال الشعبي راح ينسج حول الوفاة ألغازا تعكس نظرته لها، ومن بينها؛

"حاجيتك أبا سلوك، غلب بويا وبوك، وغلب حتى سلطان الملوك"، لغز يظهر الوفاة كسلطة قهرية تقضي على الفرد والجماعة.

والى جانب الأمثال يشكل الفكر الشعبي طروحات شعرية تعالج ظاهرة الوفاة، حيث تعبر القصائد عن مشاعر الفقد والحزن وتوظف لغة شعبية قريبة من القلوب، وعلى سبيل المثال لا الحصر قصيدة حيزية لبن قيطون [18] اين يظهر فيها الشاعر حزنه وتأثره بفقدان الأحباء.

ماذا تدي يا تراب من الزينين يا دراق وجوه لحباب اخساره

يا فراق اللي كانوا مجمولين يا دراق الحزن بكثرة الأمارة
درقت انبياء درقت مرسلين درقت مـــلوك مع الأمـــراء
درقت علماء درقت مصلحين ودرقت أبطـــال مع الشـــراء

اما بالنسبة للتعابير الشعبية فهناك مثلا؛

"بعيد البلا والشر" و"إن شاء الله للعديان"، حيث يعتقد الأهالي أن ترديد هذه العبارات قد تبعد العدوى المحتملة للوفاة وتحويلها الى الأعداء، كما يشعرون بالاشمئزاز من دواعي الوفاة مثل المرض ويعبرون عن ذلك بقولهم "باسوا في راسوا"؛ ومعناه الدعاء ببقاء المرض مقيدا بالشخص المصاب به خشية انتقاله اليهم وتسببه في الوفاة.

بالإضافة الى ذلك يتشاءم الأهالي من أنواع معينة من الطيور مثل البومة أو الهامة كرموز تدلّ على دنوّ الأجل. ويرجع الناس ظهورها أو سماع صوتها إلى إشارة لحدوث حدث مأساوي أو وفاة، ويندرج هذا الاعتقاد ضمن الثقافة الشعبية كنوع من الطيرة. (19)

ان التصور الشعبي الذي يربط ظهور البومة بموت أحدهم يعكس العقائد والتقاليد الدينية والثقافية في المجتمع، حيث تمثل البومة في هذا السياق رمزا يعتبر مؤشرا على الوفاة، وهو يتجذر ضمن معتقدات دينية مرتبطة بمفهوم الملائكة، خاصة ملك الموت المكلف بقبض أرواح البشر عند حلول أجلهم، والذي يملك "سبعين ألف قائمة وله أربعة آلاف جناح". (20)

من جهة أخرى للبومة مرجعية أسطورية مفادها تحول البومة من امرأة حزينة فقدت ولدها إلى طائر ينشط في الليل ويعيش في الأماكن المهجورة، وينام عند أحجار قبر الولد المتوفى. (21)

تكشف أيضا تعابير الأهالي مثل ظاهرة حك الأنف بشدة عن القلق والخوف من الوفاة، حيث يعتبر هذا الفعل مؤشرا الى قرب وفاة أحدهم، ويزيد التوتر حدة في حال وجود شخص مريض في الاسرة.

بشكل عام تظهر هذه الروايات والتصورات في الثقافة الشعبية كوسيلة لتفسير الأحداث والتجارب، وتعكس التراث العميق الذي يحاول الانسان من خلاله تفسير الغموض والفقدان في حياته.

المطلب الثاني: ممارسات الاحتضار في مختلف الديانات

يعكس تفاوت الممارسات والطقوس المتبعة لحظة الاحتضار بين الديانات المختلفة التنوع الثقافي والديني في العالم، حيث تمارس كتعبير عن الاعتقادات والقيم الروحية التي تشكل أساس تلك الديانات.

ففي الديانة الإسلامية وعند الاحتضار يقدم للمحتضر كأسا من الماء ليشرب، وتوضع السبابة في اتجاه السماء وتلقن له الشهادتين، ويوجه الجسد نحو القبلة، وتتم قراءة القرآن عند رأس المحتضر خاصة سورة ياسين. بينما يتم تقديس المريض في الديانة المسيحية، ويصاحب ذلك قراءات انجيلية من قبل الكاهن أو أحد اقربائه.

أما في الديانة اليهودية فيتم أداء بعض الصلوات والادعية، ويمنع لمس المحتضر على أساس أنه يشبه في نظرهم الشمعة التي تشتعل بشكل خافت، حيث أن لمسها يعني إطفاء الحياة فيها، ثم يقوم الأقارب بقطع أجزاء من ثيابه ويشعلون شموعا كرمز للحزن.

وفي الديانة البوذية يوضع جسد المحتضر على الجانب الأيمن، واليد اليسرى على الفخذ الأيسر، واليد اليمنى أسفل الذقن مغلقة بذلك المنخر الأيمن والأنف، وتسمى بوضعية الأسد النائم بغية تشكيل مجسم بوذا، ولا يسمح بلمس الجسد أثناء الاحتضار بل يتم تحريك الجسد من أعلى الرأس لمكان المتوقع لخروج الروح.

ومن ناحية أخرى نجد أن الديانة الهندوسية تجري الصلوات على المحتضر متضمنة بذلك أداء مناسك دينية وقراءة نصوص هندوسية. [22]

تعكس هذه الممارسات التفاعل العميق بين العقائد الدينية والتقاليد الثقافية، حيث تشدد على أهمية لحظة الاحتضار كنقطة انتقال من العالم الدّنوي الى العالم الاخر، لكن الاختلاف بينهم يتجلّى في الممارسات الطقوسية وبأشكال التعبير الشعبي عن ظاهرة الاحتضار والانتقال الى مرحلة الموت حسب معتقدات كل ديانة.

المبحث الثالث: الاحتضار في المخيال الشعبي التلمساني

إن الرؤية المختلفة لمرحلة الاحتضار تعكس الفلسفة والايمان داخل المجتمع، ففي المخيال الشعبي التلمساني يعتبر الاحتضار مرحلة تأتي قبل مفارقة الروح الجسد مفارقة نهائية، وهي من أصعب المراحل التي يمر بها الفرد وأهله.

وهنا نجد نوعين من المراحل التي يمر بها الانسان؛ فهناك لحظة احتضار الانسان الكافر ولحظة احتضار الانسان المسلم، وهما مختلفتان؛[23] حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " ...إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الاخرة...يجئ ملك الوفاة عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: "أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج فتسير كما تسير القطرة في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الآخرة وإقبال من الدنيا، يجيء ملك الوفاة حتى يجلس عند رأسه يقول:" أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط الله وغضب فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخدها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض".[24]

نستشف ان لحظة احتضار المسلم تصور المشهد بإيجابية حيث يتم استقبال المحتضر برحمة من الله ورضوانه، إضافة الى الأطياف الملائكية الرحيمة وإخراج الروح بلطف مع انتشار روائح العطر والمسك في المكان. بينما لحظة احتضار الانسان الكافر تصور مشهدا مظلما يسوده غضب من الله وسخطه، وتصاحبه أطياف ملائكية قاسية ويتم خروج الروح برائحة نتنة، ويتجلى هذا الوصف بصورة قوية لتحذير الناس من تجاهل القيم الدينية الإسلامية. ان الادراك الحقيقي للاحتضار يبقى تجربة فردية يمر بها الشخص الذي يحتضر ولا يمكننا إدراكها إلا بالقياس على الآلام التي نعرفها جسديا.

هذا من الناحية الدينية أما مسألة الاحتضار في المعتقد الشعبي فتعتبر عنصرا دينيا يندرج في إطار ما جاء به الدين الإسلامي وتضاف اليه بعض العناصر الشعبية التي تختلف حسب التصورات الدينية الرسمية.

فيكون الاحتضار بحسب سلوك الشخص في دنياه، ويرتكز على معتقد شائع مفاده ان الله سبحانه وتعالى يقول لملك الوفاة:" اذهب إلى الجنة فخذ منها تفاحة عليها علامة وبرهان، إذا رأتها روح عبدي فرحت، فيذهب ملك الوفاة إلى الجنة ويأخذ منها تفاحة وعليها مكتوب "بسم الله الرحمن الرحيم" فإن رآها الشخص تنصرف مرارة الوفاة وتخرج سريعا". [25]

وهنا تمثل التفاحة في المخيال الشعبي رمزا للخلاص من سكرات الوفاة والاحتضار رغم انها كانت تمثل أيضا رمزا للخطيئة التي أدت بسيدنا آدم عليه السلام إلى الخروج من الجنة.

يعكس استخدام التفاحة كرمز لحظة الاحتضار فهما شعبيا محددا للرحمة والخلاص في تلك اللحظة الحساسة، حيث يمكن ان يكون للتفاحة رمزا للفترة الزمنية التي يحتمل ان تنجي المحتضر من سكرات الوفاة.

من جانب آخر يستحضر المعتقد الشعبي فكرة محددة للإحاطة بلحظة الاحتضار، حيث يتم تقسيم هذه الفترة الى عدة مراحل ومدتها لا تتجاوز ثلاث ساعات حيث يتم خروج الروح من القدمين إلى الركبتين ثم استراحة ساعة وبعدها يتم خروج الروح من الركبتين الى السرة ثم استراحة ساعة ثانية، يليها خروج الروح من السرة على الصدر ثم استراحة ساعة ثالثة وبعدها تخرج الروح من الصدر إلى الحلقوم وهنا تأتي مرحلة الوفاة النهائي. [26]

تعزز تفاصيل طقوس الاحتضار والمدة الزمنية في المخيال الشعبي التلمساني المشهد الديني بالعناصر الثقافية والشعبية المحلية، وتظهر كيف يمكن تأويل وتفسير العقائد الدينية بشكل مختلف في سياق العقائد الشعبية.

المطلب الاول: طقوس الاحتضار في المخيال الشعبي التلمساني

تتركز طقوس الاحتضار في المخيال الشعبي التلمساني حول مجموعة من الممارسات التي تتخذ شكلا ثقافيا ودينيا، فعندما يكون الشخص في مرحلة الاحتضار يلجأ أفراد أسرته إلى جمع الأقارب من أجل وداعه وتحقيق المسامحة والمصالحة بينهم، ويأخذ هذا الاجتماع الأهلي أهمية خاصة، حيث يشكل لحظة انعطاف تستند الى تقاليد محلية.

ثم يتم تلقين المحتضر كلمة التوحيد، حيث يتمحور هذا الفعل حول ترديد عبارة؛ "لا إله الا الله" بشكل مكثف على مسامعه مرارا حتى يرددها أما إذا تعذر عليه التلفظ بها يرفع أصبعه للشهادة ويعتبر هذا الفعل بمثابة تعبير عن الشهادة بالوحدانية الإلهية؛ "لقنوا الميت لا إله إلا الله فإذا قالها دعوه". (27)

وفي اعتقادهم ان الشخص المحتضر الذي يتلفظ بالشهادة قبل الوفاة سيحظى بالجنة استنادا الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة". (28)

لا تقتصر الطقوس على ذلك فقط بل تشمل أيضا تلاوة القرآن وخاصة سورة يس، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "اقرأوا على موتاكم يس". (29) الأمر الذي يبين جليا انعكاس تأثير الدين الإسلامي في الممارسات الشعبية، حيث يتم ترسيخ المعتقدات والقيم الدينية والتجارب الحياتية للأفراد والمجتمع، مما يبرز التفاعل المعقد بين العقيدة والثقافة في سياق الاحتضار.

تعرف مرحلة الاحتضار من جانب آخر ظاهرة ملفتة وهي تلفظ المحتضر بأسماء بعض الأشخاص الذين ماتوا مما يثير قلق الحاضرين الذين يستطيرون من هذيان المحتضر خوفا من ان تذكر أسماؤهم ويظنون انهم اللاحقون، فيعيشون هوسا مفاده التقاء روح المحتضر مع الأرواح الراحلة التي تعلن له عن أسماء اللاحقين بهم.

بعدها تأتي مرحلة تقديم الماء للمحتضر لتكون ذات دلالة رمزية قوية في تطهير النفس من الذنوب والتحضير للرحيل الى الحياة الآخرة، وهم يعتقدون ان النفس المؤمنة تستقر في بئر زمزم بمكة المكرمة اما النفس الخبيثة فتستقر في بئر برهوت باليمن. (30)

ومن العناصر الهامة التي يعتقد فيها الأهالي كثيرا هي ربط الروح بالذهب، كعنصر أساسي يتعلق بقوة الروح وقدرتها على المرور الى الحياة الآخرة، فهم يعتقدون ان الشخص الذي لا تخرج روحه بسهولة

بسبب الأعمال الدنيوية التي كان يقوم بها، يمكنهم مساعدته من خلال نزع احدى الجالسات حلية من الذهب الخالص وتمريره بين الحضور ثم ارجاعه اليها. وهكذا تخرج الروح من الجسد عندما ينزع الذهب من المرأة ثم تعود الروح لخالقها عندما يمرر الذهب على الحاضرين ويعود اليها. (31)

وفي هذا السياق يظهر الذهب دورا حيويا حيث يعتبر وسيلة للتخفيف من تقييد الروح والسماح لها بالانفصال بسهولة، الأمر الذي يبرز عمق الترابط بين الذهب والروح في المعتقد الشعبي.

لكن لاحظنا حاليا تغير مفهوم ارتباط الذهب بمرحلة الاحتضار حيث تفضل بعض النساء عدم ارتداء الذهب اثناء الاحتضار او الجنازة احتراما للموقف، ففي اعتقادهم ان الذهب رمز للفرح والسرور ويستعمل في الأفراح الأعراس وليس في الجنائز، ولكن يظل هذا الاعتقاد عند بعض الأسر في المناطق الريفية اما الأسر الحضرية فتسمح بوضع الخواتم الذهبية والأقراط في الجنازة بشكل محتشم. وكأننا أمام نوع من المحرمات أو الطابوهات التي تحرم على الاحياء ارتداء أي شيء يوحي بالسعادة والفرح.

ويظل للذهب مكانة كبيرة في المخيال الشعبي، حتي يرتبط بالفرج وزوال الهم حيث يقال في المثل الشعبي "الحدايد للشدايد" عن ايمان واعتقاد الذهب يذخر استعدادا للمواقف الصعبة والضيقة.

بالإضافة الى الذهب هناك معتقدات أخرى تسمح بتسهيل خروج الروح وهي وضع مفتاح في يد المحتضر، وفتح نوافذ وابواب المنزل التي كانت قليلة الفتح من قبل، حيث يعتقد أن الأرواح تميل الى المغادرة من الأماكن التي كانت مهجورة، وهناك من يعتقد أن الروح مرتبطة بقفل معين ويتعذر عليها الخروج إلا إذا تم فتحه.

خاتمة:

إشارة الى الطقوس والشعائر المتعلقة بمرحلة الاحتضار، يمكن ملائمة هذه الممارسات ضمن السياق الاجتماعي والثقافي للمجتمعات، والملاحظ أن معظم هذه الاعتقادات والطقوس لا تمت الى أساس ديني صريح في الشريعة الإسلامية، بل تمثل تقاليد شعبية تعود الى الحكايات والأساطير التي نقلت عبر الأجيال.

وفي كثير من الأحيان يتم ربط هذه الطقوس بالعناصر الدينية والخيالية السحرية في توليف يمزج بين الأمور الدينية والأساطير المحلية، الأمر الذي يبين كيفية تموج المجتمع بين العقائد الدينية والعادات الشعبية المتوارثة.

وقد تم توارث هذه المعتقدات عبر أجيال عديدة من خلال الحكايات والأساطير التي نسجت في مختلف الحضارات. حيث يظهر هذا المفهوم التناقض بين القبول والرفض في المخيال الشعبي لظاهرة الوفاة،

الأمر الذي يساهم بشكل كبير في ممارسة الطقوس سواء الدينية أو الخرافية كوسيلة للتعايش مع هذه الفكرة المعقدة والمخيفة للوفاة في المخيال الشعبي للمجتمعات.

الهوامش:

01-مجد الدّين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مطبعة مصطفى البابليّ، 817هـ ، مادة (م و ت)، ص160

02- ينظر موفق زازوي، الطقوس الجنائزية في منطقة تلمسان، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2002/2001، ص02

03-Arnold Van Gennep, Les rites de passage, édition A.et J. Picard, Paris, 1981, p.20-30-195.

04- شارلوت سيمور سميث، موسوعة علم الانسان، ترجمة مجموعة من الأساتذة باشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، مصر، 2009، ص505

05-أبو الفتح ناصر عبد السيد ابي المكارم ابن علي برهان الدين الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، 610هـ، ص120، مادة حضر

06-أبو العباس احند بن محمد بن علي الفيومي الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، 770هـ، ص140/1، مادة حضر

07-موفق زازوي، مرجع سابق، ص17

08-شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص. 353.

09-المرجع نفسه، ص. 350.

10-أبو الفضل جمال الدّين بن محمّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ج11، ص.ص.226-230.

11-محمد نور الدين افايه، المتخيل والتواصل: مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص14-15

12- شوشان زهرة، ضيف نجية، الحكاية الشعبية في المخيال الاجتماعي الجزائري، مجلة افاق علمية، العدد 07، جويلية 2012، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، ص184-185

13- سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى: المخيال الصحراوي في ادب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص.25.

14-يحي مرسي عيد بدر، أصول علم الانسان، الانثروبولوجيا، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية 2007، ص431-439

15-Arnold Van Gennep, o.p.c, P 75

16-صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دار محمد علي للنشر، تونس، 2008، ص763

17-إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، م 2، الرسالة السادسة والعشرون، دار صادر، بيروت، دت، 395.

18-العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص50

19-الطيرة من المعتقدات القديمة والعميقة الجذور، وهي مشتقة من الطير، فهناك طيور ترمز للتفاؤل كما يوجد طيور ترمز للتشاؤم، للمزيد انظر، شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، ط1، 1982، ص 630.

20-ابن احمد القاضي، دقائق الخبار في ذكر الجنة والنار، مطبعة مصطفى محمد التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1352هـ، ص7.

21-طارق حداد، صور من المعتقدات، مقال استخرج من الرابط www. Islamweb. Net بتاريخ 2015/05/21

22- موفق زازوي، مرجع سابق، ص 24-30

23- الاحتضار هو نزول الوفاة بالإنسان، او دنو موته، للمزيد انظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 12986، المجلد 4، ص199.

24-ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز، دار العلم للجميع، بيروت، 1969، ص159.

25- بن احمد القاضي، دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، مطبعة مصطفى محمد التجارية الكبرى، مصر، 1352هـ، ص217.

26- المرجع فسه، ص09.

27- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج22، م06، ط2، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م، ص09.

28- المرجع نفسه، ص 37.

29- ناصر الدين الألباني، التعليقات الرضية على الروضة الرضية، ضبط وتحقيق ونشر على بن عبد الحميد الحلبي، دار بن عفان للنشر والتوزيع، ص425.

30- محمد، عجينة، موسوعة اساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، دار الفرابي بيروت لبنان، ط1، 1994، ص 256-260.

31- حسن بلوزة، من الموقع، الوفاة في المخيلة الشعبية، الشبكة الإسلامية، www/ islamweb.net

المراجع:

1-ابن احمد القاضي، دقائق الخبار في ذكر الجنة والنار، مطبعة مصطفى محمد التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1352هـ.

1- أبو العباس أحند بن محمد بن علي الفيومي الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، 770هـ.

2- أبو الفتح ناصر عبد السيد ابي المكارم ابن علي برهان الدين الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، 610هـ.

3- أبو الفضل جمال الدّين بن محمّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

3-إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، م 2، الرسالة السادسة والعشرون، دار صادر، بيروت، دت.

4- بن احمد القاضي، دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، مطبعة مصطفى محمد التجارية الكبرى، مصر، 1352هـ.

5- حسن بلوزة، من الموقع، الوفاة في المخيلة الشعبية، الشبكة الإسلامية، www/ islamweb.net

6- سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى: المخيال الصحراوي في ادب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000...

7-شارلوت سيمور سميث، موسوعة علم الانسان، ترجمة مجموعة من الأساتذة باشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، مصر، 2009.

8-شوشان زهرة، ضيف نجية، الحكاية الشعبية في المخيال الاجتماعي الجزائري، مجلة افاق علمية، العدد 07، جويلية 2012، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر.

9-شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، ط1، 1982.

10- صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دار محمد علي للنشر، تونس، 2008.

11- طارق حداد، صور من المعتقدات، مقال استخرج من الرابط www. Islamweb. Net بتاريخ 2015./05/21

12- العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

13- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج22، م06، ط2، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م.

14- مجد الدّين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مطبعة مصطفى البابليّ، 817هـ.

15-محمد، عجينة، موسوعة اساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، دار الفرابي بيروت لبنان، ط1، 1994.

16-محمد نور الدين افايه، المتخيل والتواصل: مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

17- موفق زازوي، الطقوس الجنائزية في منطقة تلمسان، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2002/2001.

18- ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز، دار العلم للجميع، بيروت، 1969.

19- ناصر الدين الألباني، التعليقات الرضية على الروضة الرضية، ضبط وتحقيق ونشر على بن عبد الحميد الحلبي، دار بن عفان للنشر والتوزيع.

20-يحي مرسي عيد بدر، أصول علم الانسان، الانثروبولوجيا، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية 2007..

21-Arnold Van Gennep, rite de passage, Picard, France, Paris,2011.